الفصل الحادي عشر

السحر
Magic

لقد كتب الأنثروبولوجي الشهير «برونيسلو مالينوفسكي» ***Bronisław Malinowski***: «إذا نظرنا من عليائنا الآمن في مدينتنا المتطورة فإنه من اليسير أن نرى سخافة السحر وعدم جدواه». لقد اهتم الأنثروبولوجيون بدراسة «السحر» ***magic***، إذ حاولوا معالجة هذا الموضوع في شيء من التفصيل وخاصة القدامى منهم، وعلى رأسهم «تايلور» في كتابه: (الثقافة البدائية) ***Primitive Culture*** (1871)، كما أولاه «جيمس فريزر» ***James G. Frazer***، والذي عمل أستاذاً في جامعة ليفربول، جزءاً كبيراً من اهتماماته، وخاصة في كتابه المعروف (الغصن الذهبي) ***The Golden Bough*** (1890) والذي ضمنه نظريته المعروفة في السحر والدين، ثم في كتابه (الأنثروبولوجيا) ***Anthropology*** حين عرض للعلم الصحيح والعلم الزائف. ثم جاء «إيفانز بريتشارد» بدراسته المعروفة عن «الأزاندي». و«مالينوفسكي» في مؤلّفه الشهير (السحر والعلم والدين) وآخرون كثيرون. بل يمكن القول إنه لا يوجد باحث أنثروبولوجي قد تعرض للثقافات البدائية لم يتناول السحر والممارسات السحرية بطريقة أو أخرى، كما وجدنا في معالجات «مارسيل موس» ***M. Mauss*** و«هنري هوبير» ***H. Hubert***، و«روجيه باستيد» ***R. Bastide*** وقوانينه في السحر ومحاولته تقديم تفسير سيكولوجي للسحر وتأكيده أن المعتقدات السحرية لا تخضع للتفسير الديني أو العلمي.

وفي الحقيقة إن قضية التفرقة بين الدين والسحر شغلت بال الكثيرين من العلماء، فتايلور مثلاً اعتبر السحر والممارسات السحرية من قبيل العلم الزائف،

obeikandl.com

محاولاً أن يفرق بينه وبين الدين، على الرغم من أنهما (السحر والدين) يشتركان معاً في الاهتمام بعلم ما راء المحسوسات، كما أنهما يتعلقان بالنواحي الخفية الغامضة من التجربة الإنسانية، فالممارسات والطقوس السحرية وكل ما يصدر عن الساحر من أفعال سواء أكان يستعين في تحقيقها بالكائنات الروحية أو بعناصر أو عوامل أخرى تختلف في طبيعتها اختلافاً تاماً عن مظاهر الدين كما يرتبط مفهومه في أذهان معظم الناس.

أما فريزر فقد اعتنق مذهباً تطورياً في رؤيته للعلاقة بين السحر والدين فالفكر الإنساني انتقل من السحر إلى الدين إلى العلم أي حالات ذهنية ثلاث. وأياً كان الأمر فإن المحدثين الآن لا ينظرون إلى الدين والعلم والسحر على أنها حالات متمايزة يمر بها المجتمع الإنساني في تطوره، وإنما يعتبرونها ثلاثة أنماط من النشاط العقلي[1].

إن السحر، كما يقول فريزر، لا يتم كيفما اتفق، إذ ثمة مبادئ تحكمه، وكما يقول في كتابه السابق الإشارة إليه: إننا إذا حاولنا تحليل مبادئ الفكر التي يقوم عليها السحر فمن المحتمل أنها تنحصر في مبدأين:

1- الشبيه ينتج الشبيه.

2- إن الأشياء التي كانت متصلة من قبل سوف يستمر تأثيرها حتى بعد انفصالها الطبيعي.

ويسمي المبدأ الأول قانون المشابهة، والمبدأ الثاني قانون الاتصال. من الأول يمكن إدراك أن الساحر يمكن أن يحدث أي تأثير يريده بمجرد المحاكاة أو التقليد. ومن الثاني فإنه يستطيع إحداث أي شيء في الجزء المادي وسوف يكون له تأثير متعادل مع الشخص الذي كان هذا الشيء المادي متصلاً به من قبل. ويستمر فريزر فيستنتج ما أسماه بسحر المحاكاة *Imitative magic* وسحر الاتصال *Contagious magic*، ثم ينتقل إلى نوع آخر من التصنيف فيذهب إلى ما أسماه بالسحر النظري *Theoretical magic* إذا ما نُظر إليه على حد زعمه على أنه نسق من القانون الطبيعي في مقابل السحر العملي *Practical magic* والذي يشير إلى

---

(1) جيمس فريزر: الغصن الذهبي، ترجمة: د. أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971، ص 51.

مجموعة من القواعد التي يأخذها الناس في الحسبان كي يحققوا غاياتهم. ولا يقتصر تصنيفه على هذا فيحاول فيما بعد أن يفرق بين ما أسماه «السحر الخاص» *Private magic* الذي يستهدف مصالح أفراد أو إلحاق الضرر بهم، في مقابل «السحر العام» *Public magic* الذي يستهدف المجتمع ككل.

إن دارسي المجتمعات التقليدية يدركون على الفور أنهم محاطون بالكثير من الممارسات والطقوس السحرية، وأن الباحث في تصرفات هذه الشعوب العقلية والاجتماعية لن يجد اعتقاداً أكثر عمقاً من السحر الذي قد يبدو مسيطراً تماماً على مخاوفهم من الأمراض ومفسراً للحوادث الطارئة، ومبرراً للإخفاق في الحب، والفشل في علاج الأمراض الحادة كالجذام والملاريا ومرض النوم، كما نجد عند بعض الأفارقة. وليس ثمة مغالاة إذا قلنا إن السحر يمتد إلى حياتهم الاجتماعية والصحية والاقتصادية والسياسية ومقاومة الجريمة والانحراف، وإليه يرجعون الحظ العاثر والمرض المفاجئ وهلاك الماشية وجدب الأرض وفساد المحصول وموت الطفل وفشل الصيد ونضوب الماء، عدم سقوط المطر، فضلاً عن موت الزعيم... بل إنه مسؤول عن حدة الطبع وسرعة الغضب وعدم القدرة على الإنتاج...

إن قبائل البامبو في غينيا الجديدة يعتقدون في السحر والعين الشريرة. فإذا ما ساءت المحاصيل الزراعية، وإذا لم تثمر أشجار «النارجيلة»، أو ماتت الخنازير، أو لم يأت الصيد وفيراً، أو طغى مد البحر فتآكلت أجزاء من اليابسة... فالسبب في ذلك هو الممارسات السحرية وغضب الأسلاف والحسد، ويبررون به الأحداث الطارئة والأمراض.

وعلى سبيل المثال، يعتقدون بوجود أشخاص لديهم القدرة على معايشة نوع من الشياطين يسمونه «مجل» ويعتقدون أنه ينتقل عبر الأسلاف من الأجداد إلى الأبناء وإلى الأحفاد، وأنه كفيل بتحقيق الخير لهم والشر لمن عاداهم، بل لا يترددون على الإطلاق في طلب انعقاد المجلس العرفي لوضع حد لشروره تجاه الآخرين. من هذا القبيل تلك القضية التي عرضت على مجلس «الجونفان» في جبال الأنقسنا والتي أثارها «تول» ضد أخيه «بملفة» زاعماً أن هذا الأخير تقمصته روح شريرة، وأن النزاع بينهما قد احتدم لدرجة تعذر فيها الإقامة معاً، ورفعت القضية للشيخ «الأور» الذي

استدعى على الفور ثلاثة من كبار السن «الجونفان» طالباً منهم مناقشة الأمر وحسم الموقف، ولكن بعد أيام قليلة، عادت القضية إلى «الأور» فالنزاع ما زال محتدماً، فقام بدوره باستدعاء مجلس «الجونفان»، ممن يقيمون في المنطقة فضلاً عن أولئك الذين حاولوا حسم النزاع في المرة السابقة، وطلب «الأور» من طرفي النزاع أن يبدي كل منهما بأقواله، ثم طلب إلى الجونفان الثلاثة أن يوضحوا جهودهم من أجل تسوية الخلاف بين الأخوين، وقد أفادوا بأن «تول» يرفض الإقامة مع أخيه طالما تحلى بهذه الروح الشريرة. هنا أشار أحد الحاضرين وهو من الجونفان إلى أنه يعرف مصدر هذه الروح الشريرة، إنه «دوجوص» صديق «بملفة» الذي ورث هذا الشيطان عن أبيه، هنا أمر «الأور» باستدعاء «دوجوص» ثم سأله لماذا يترك «مجل» في بيت هذين الأخوين ليسبب لهما المتاعب؟ قال «دوجوص» إن هذا الشيطان تركه لي أسلافي ولا حيلة لي في التخلص منه ولم أره في يوم ما بعيني ولكني سمعت عنه من أبي منذ كنت صغيراً. هنا قال «الأور» لدوجوص: إن شيطانك هذا موجود في بيت تول وبملفة لذلك أطلب منك أن تستدعي هذا الشيطان إلى بيتك وأن تترك هذين الأخوين ليعيشا في سلام. وافق دوجوص على طلب الأور والجونفان... هنا أحضر الأخوان المتنازعان بقرة وذبحاها وأكل الحاضرون وتمت تسوية النزاع!!

ولا يختلف الأمر كثيراً لدى القبائل التي تسكن كارلنجا من جبال تلشي جنوب كردفان، إذ الاتهام بالسحر دائم الحدوث، وليس لديهم تبرير عقلاني لاتهاماتهم تلك، إنه مجرد إدراك أسطوري غامض تناقلته الأجيال وليس له تفسير. فإذا ما أصاب أحدَهم ضررٌ توفي على إثره أو أصيب بمرض مفاجئ أو فشلت الأرض في الإنتاج أو في إعطاء محصول وفير أو ضعفت الأبقار... فإنهم يعزون ذلك إلى السحر، ومن ثم يبحثون عن الانتقام خاصة إذا ما حققت الأحلام تصوراتهم تلك كأن يرى الشخص في منامه ذلك الذي ارتكب هذه الجريمة، أي ليس هناك أدلة مادية على ارتكاب هذه الجرائم سوى الأحلام، وعادة ما يلجؤون إلى أحد الكجرة ممن يناط بهم حق الامتياز الشعائري، والذي يطالبهم في العادة بنحر خنزير لينثر دمه قبل طلوع الشمس، حيث يقطن أولئك الذين يعتقد في ارتكابهم لجريمة السحر وهذا في حد ذاته كفيل بأن يبدد تأثير السحر من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن

المجني عليه قد يتقدم بشكواه إلى المجلس العرفي والذي يقضي بدوره بأن يقدم الجاني دجاجة أو خنزيراً على سبيل القربان للإله موسلي، فإذا كان بريئاً فإن الأذى لن يلحق به، أما إذا كان مذنباً فسوف يلحق به الضرر كالعمى أو الشلل أو نحو ذلك[1].

ويحدثنا نادل *Nadel* عن واقعة يمكن أن نجد فيها مدى عمق الاعتقاد في مثل هذه الممارسات من أن رجلاً يدعى *Kokwa* في كارلنجا ماتت زوجته بطريقة غامضة، وبعد فترة وجيزة جاءت إليه زوجته في المنام وزعمت أن شخصاً يدعى *Kokwa* (نفس اسم الزوج) من منطقة *Tordi* المجاورة قد سحرها، ثم كانت وفاتها. هنا استغاث الزوج بأقاربه وساروا حيث يقيم المدعى عليه، ولكن ما لبث الزعيم أن علم بما عقدوا العزم عليه فاستدعى الزوج للمثول بين يديه، وجدد هذا الأخير ادعاءه، والغريب أن المتهم اعترف بأنه قد ارتكب مثل هذا السحر مع الزوجة انتقاماً من زوجها الذي سحر منذ فترة ابن أخته فقتله. هنا أمر الزعيم بحبس الجاني أربعة أيام وتغريمه ثوراً[2].

نحن هنا إذاً بصدد جريمة ثأرية قامت أدلتها على الرؤى والأحلام وارتبطت بالممارسات السحرية بطريقة مباشرة.

ولا يقتصر الاعتقاد في السحر على ذلك، بل يمتد إلى كافة المناشط الحيوية كتلك التي تتعلق بنظافة الأرض وإعدادها للزراعة، أو تلك التي ترتبط بإسقاط المطر، أو الحصاد، بل إن هناك العديد من الممارسات التي ترتبط بضعف المحصول أو فساد الإنتاج كما نجد لدى هنود *Omaha* في شمال أمريكا عندما يتلف محصول المنطقة نتيجة لانخفاض معدلات المطر. لذلك فإن أعضاء جماعة البقرة المقدسة يملؤون وعاءً كبيراً بالمياه ويرقصون حوله فترة من الوقت، ثم يتقدم زعيم الجماعة ليرتشف بعض الماء ثم يدفعه بفمه إلى الهواء كما لو كانت السماء تمطر رذاذاً أو مطراً خفيفاً، ثم يدفع بالإناء على الأرض فتتدفق المياه وتنسكب، فيندفع الراقصون إلى الأرض في محاولة لشرب المياه المتدفقة حيث تتلطخ وجوههم بالوحل،

---

[1] د. فاروق إسماعيل: أثنوغرافيا كارلنجا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1982، ص 116.

[2] S. F. Nadel: The Nuba, London, p. 350.

ثم يحاولون مرة أخرى التخلص من المياه التي حصلوا عليها في أفواههم في الهواء محدثين نوعاً من الرذاذ... إن ثمة اعتقاداً بأن هذه الممارسات كفيلة بسقوط المطر (كنوع من سحر المحاكاة)[1].

فإذا تعذر سقوط المطر في جبال الأنقسنا شرقي السودان، فإن الزعيم الروحي متمثلاً في أولئك الذين لديهم حق الامتياز الشعائري يهرع إلى قمة الجبل للقيام بشعيرة سقوط المطر، وتبدأ الشعائر حين ينفخ بالبوق، حيث يتجمع الأهالي على قمة الجبل، فإذا ما اجتمعوا فإنهم يقصدون على الفور أحد بيوت الأسلاف الشهيرة مثل بيت «وي ماني» ويسمونه البيت الكبير، ويعتقدون أن سلفهم الأكبر يعيش فيه وهو أشبه بالكهف أو المغارة ومنذ البداية يتولى أحد ثقاتهم المرموقين من الزعماء الدينيين «السين» الإشراف على الشعيرة، حيث يجلس على حجر مقدس أمام البيت الكبير ويعطي لهم إشارة البدء بالسعي والهرولة في الجبل، ويقودهم أحد الكجوريين، وكلما قطعوا مسافة يأمرهم الكجور بالتوقف، حيث يوجه رمحه إلى مكان معيّن فيحضرون ويستمرون كذلك إلى أن يأمرهم بالتوقف، ثم ينزل إلى الحفرة ليستخرج بعض الصخور أو العظام أو شظايا الزجاج، وبعدها يوجه رمحه إلى منطقة أخرى وهكذا عدة مرات. ثم يبدؤون رحلة العودة إلى حيث «السين» زعيم العشيرة المنتظر عند بيت الأسلاف ليعرض الكجور عليه ما وجده من بقايا ومخلفات. هنا يتوجه الزعماء الدينيون إلى بيت السلف الأكبر مناشدين إياه الوساطة لدى «تل» لأنه في حالة سيئة، سائلين إياه أن يمن عليهم بالمطر ففيه إنقاذ لحياتهم، وهم يعتقدون أن أسلافهم لديهم القدرة على إقناع «تل» بإسقاط المطر، إذ إن هذا الأخير قد أعطى تفويضاً لأناس معيّنين (كالسين وغيره) للوساطة في إسقاط الأمطار، وأن هؤلاء الناس لديهم علاقة وسيطة بتل والأسلاف على السواء. وبمجرد أن يعرض الكجور ما وجده من بقايا ومخلفات يطلب الزعيم بقرة سوداء، ويتولى ذبحها، ثم يبدأ كبار السن في تناول لحمها ويشارك الجميع في الرقص والغناء على الزمبارة، وتناول كميات كبيرة من المريسة ويظلون كذلك وقد تسقط الأمطار وقد لا تسقط فهذا مرده إلى مشيئة «تل».

---

(1) John Lewis: Anthropology Made Simple, London 1969, pp. 160-161.

كما يلعب الطبيب الساحر أو «الكجور» دوراً حيوياً في علاجهم من الأمراض، بل قد يلعب دوراً حيوياً في حمايتهم من الكوارث أو المصائب. إن ثمة اعتقاد أن لديه القدرة على أن يفعل ذلك، بل وعلى أن يلحق الضرر بالآخرين سواء في صورة مرض، أو أن يجلب لهم سوء الحظ، كما نجد عند سكان جبال الأنقسنا وكارلنجا وكورنجو السابق الإشارة إليها، وكما نجد لدى جيرانهم في الجنوب من «الأزاندي». يحدثنا *John Lewis* أن الأزاندي يعتقدون إلى حد بعيد في السحر، وأن الساحر لديه القدرة على استدعاء الروح التي يمكنها أن تلحق الضرر بالآخرين. إن أولئك الذين لحق بهم الحظ العاثر بسبب الممارسات السحرية يلجؤون إلى الكاهن أو العراف أو الكجور ليكتشف الجاني، وقد يستغرق هذا بعض الوقت، فإذا ما اكتشف المذنب فإنه يواجه بالاتهام والمطالبة بأن يبعد تأثيره الضار أو أفعاله الشريرة[1]. ولا تتم المواجهة أو الاتهام في كثير من الأحيان وتبدو ردود الفعل كما لو كانت موجهة إلى فاعل مجهول يقيم في هذه المنطقة أسفل السفح أو أعلاه مثلاً.

إن أفعال الكجرة من محترفي العلاج في هذه المناطق قد ترتبط بنوع من الممارسات السحرية. ويجمع السكان على أن الكجور يستطيع أن يخرج المرض من الجسم على مرأى ومسمع منهم، وهو عادة ما يحمل (صرة) من الجلد تحوي أمتعته السحرية، حيث يتفوه بكلمات غريبة وقد يستخدم بعض الأعشاب والماء، ثم يأتي إلى الجزء المصاب ويدلكه بكلتا يديه، وقد يستخدم فمه ليمتص الألم، وفي النهاية يخبرهم بأن المرض قد خرج من الجسم، مشيراً إلى ما تجمع بين أصابعه من أتربة أو مخلفات نتيجة عملية التدليك لفترة طويلة من الوقت.

وتذهب *Joan Broster* في كتابها (*Red Blanket Valley*) إلى أن قبيلة *Qaba* ترى أن الأمراض الخطيرة إما أن يرسلها الأسلاف انتقاماً من أحفادهم، وإما أنها من فعل الأرواح الشريرة أو السحرة. وفي الحالة الأولى فإنها عقاب لإهمال الذبح الشعائري، وعدم الطاعة، أما في الحالة الثانية فقد تكون من فعل الطبيب الساحر أو الأرواح الشريرة وقد ترتبط إلى حد كبير بالمشاحنات والخلافات بين الأفراد والجماعات، أو حالات الصراع والمنافسة، أو الغيرة من حب مرفوض. وعادة ما يحدد

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، مرجع سابق، ص 121- 122.

المريض وأسرته المذنب معتمدين في ذلك، كما سبق الإشارة لدى سكان كارلنجا في جبال تلشي بالسودان، على الأحلام حيث يقدمون للساحر تصوراتهم والتي تعين يعينه في تحديد مصدر الشرور على الفور (أشخاص أو أرواح شريرة). وتلك الأخيرة معروفة لدى قبيلة ***Qaba*** كإدراك أسطوري غامض ومنها ما يسمى بالمحلية ***Thikolashe*** أو ***Mam Lambe*** (أم النهر) أو الثعبان الأسطوري الذي يعيش تحت الماء وقد يظهر في صورة امرأة جميلة فإذا ما شاهدها أحدهم، على حد زعمهم، يقع في حبها حينئذٍ تقيم في موطنة ***Krall*** وقد تسبب وفاة الأب أو الأخ أو العم...[1] وتذكر لنا ***Broster*** على لسان إحدى إخباريها وتدعى ***Anna*** أن هناك ثمة صلة وثيقة بين السحر وعداوات الدم وما قد تتطلّبه تلك الأخيرة من انتقام ثأري، كما نجد لدى معتنقي ديانة «الفودو» في داهومي أو في خاييتي في منطقة البحر الكاريبي، أو يلجأ أحدهم إلى الكاهن مطالباً إياه بإلحاق الموت بعدوه مقدماً التبرير الكافي، فإذا اقتنع الكاهن الساحر بما قدم المدّعي من تبريرات شرع في اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيق الموت بعدوه. وقد يطلب منه أشياء ينبغي الوفاء بها وفقاً لإرادة الآلهة على غرار ما نجده في مصر أو السودان في ممارسات (الزار)، حين تطلب (الكودية) تقديم القرابين كالطيور والدجاج بصفة خاصة، وإن كانوا يضيفون إليها الببغاوات أو البوم والعصافير الملونة وأحياناً أخرى الماعز والأبقار... وقد لا يتحقق الموت للعدو، فيبرر الكاهن الساحر ذلك بأن العدو يستعين بدوره بأرواح أخرى تدافع عنه وتحول دون أن تأتي هذه الممارسات تأثيرها الإيجابي. وقد يلجؤون إلى الطقوس السحرية دعماً للعاطفة ومشاعر الحب أو الارتباط بين الرجل والمرأة، حيث تستخدم الأعشاب فيما يسمى «بالعروق» بطريقة أو أخرى لتحقيق هذه الغاية. وعلى هذا يمكن القول:

1- إن السحر أنماط سلوكية غامضة بمثابة رد فعل غريزي لدى الإنسان، حيث يستشعر الضعف تجاه الأحداث الغامضة أو لمواجهة الحظوظ السيئة. بمعنى آخر: إن السحر هو بمثابة رد فعل على التصرفات الغامضة والسلبية غالباً، وأن ثمة افتراض أن ما لا يمكن فهمه أو تفسيره نابع من كائنات غير مرئية يقوم عليه بعض

---

[1] **Joan A. Broster: Red Blanket Valley, Hugh Keartland Publishers, Denver, Johannesburg 1967, p. 117.**

المتخصصين من الكهنة أو الكجرة أو العرافين أو أطباء السحر والمشعوذين، أولئك الذين يحتلون مركز الصدارة من القادة الروحيين الذين منحوا حق الامتياز الشعائري فضلاً عن زعماء العشائر وقادة الحرب، والذين يعتبرون الملاذ والمأوى بالنسبة لأولئك الذين يواجهون المحن وعلى حد تعبير *M. Fortes* فإن السحر يلعب دوراً مهماً في التغلب على القلق والتوتر ومواجهة العوالم التي قد يفشل الإنسان في مواجهتها أو التحكم فيها أو التنبؤ باتجاهاتها[1].

2- إن هؤلاء الممارسين للسحر لديهم قوى خفية أو قدرات خارقة هي التي تمكنهم من السيطرة على الطبيعة، وأن تتصرف في مصائر الناس. ويستطيع الساحر أن يقوم بدور الوساطة بين الأفراد من ناحية، وما وراء الطبيعة من ناحية أخرى، كما ينسب إليهم، نتيجة هذه القدرات، خوارق عن العادة كأن يطيروا في السماء أو أن يغوصوا في باطن الأرض وأن يتحولوا إلى حيوانات أو صخور، أو أن يوجّهوا الحظ العاثر إلى من يشاؤون من الأفراد[2].

3- إن ثمة حاجة ماسة لأفراد الجماعة إلى هذه القوى في ممارسة مناشطهم المختلفة (الاجتماعية والاقتصادية بصفة خاصة). من هنا يأتي تقدير الأهالي لأولئك الذين لديهم القدرة على استخدام هذه القوى.

4- تقوم الممارسات السحرية على أداء بعض العمليات وفق تكنيك معين، وتستعين هذه العمليات ببعض العناصر كالأفعال والحركات أو الكلمات المنطوقة أو المكتوبة أو كليهما. وقد يستخدم هؤلاء السحرة التمائم *Spells* والتعاويذ *Incantations*، ويقول *John Candan* إنهم يستخدمون الكلمات السحرية وإن الاعتقاد في هذه الكلمات يشير إلى أن الكلمة من حيث دلالتها إنما تشير إلى شيء ما، ومن هنا فإن ثمة ارتباط، هذا الارتباط يعني أن تغيير الشيء يترتب عليه بالضرورة تغيير في ذلك الذي يرتبط به، ومن ثم فإن كتابة اسم في ورقة وحرقها قد يسبب معاناة لصاحب ذلك الاسم. هنا يشير *Candan* إلى المبدأ الأول عند فريزر أو

---

[1] معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص312.

[2] محمد الجوهري: الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية، دار الكتاب 1978، ص 259.

قانون المشابهة، حيث إن إلحاق الأذى بشخص ما بمجرد كتابة اسم هذا الشخص والذي يشير إلى كينونته أو ذاتيته، هذا وعلى خلاف تلك الممارسات التي تخضع للمبدأ الثاني أو قانون الاتصال حيث يتم إلحاق الأذى باستعمال جزء من ملابسه أو خصلة من شعره أو جزء من أظافره أو خيط من ثوبه أو حتى مجرد أثر قدم في التراب.

5- ومن أجل استمرار الممارسات السحرية فإنها تُورَّث، إذ يرث الأبناء عن الآباء أو الأمهات، أو من الخال إلى ابن الأخت كما رأينا لدى سكان جبال كورنجو جنوبي كردفان بالسودان، ولا يعني هذا أن الوراثة هي الطريق الوحيد لاكتساب وظيفة السحر، فثمة اعتقاد لدى بعض المجتمعات البدائية أنه يمكن اكتساب مثل هذه الموهبة عن طريق الأرواح الشريرة أو بعض قدامى السحرة.

6- يخضع هؤلاء السحرة أو الساحرات لممارسات أو علاقات تحريم تتمثل أساساً في الابتعاد عن الناس والعزوف عن الحياة الجنسية. فالمرأة المتزوجة (الساحرة) إذا حلت بها روح فإن زوجها يبتعد عنها لأنه إذا اتصل بها جنسياً (كما يعتقدون) فإنه يموت على الفور. وفي حالة الكجور الذي يرغب في ذرية ترث طقوسه وممارساته فإنه يتفق مع أحد أقاربه العاصبيين ليتصل بامرأته لينجب منها أولاداً، أما الكجور نفسه فإنه يعيش حياة صوفية[1].

بين السحر والدين

يرى «دوركهايم» أن السحر كالدين يحتوي على معتقدات وطقوس، وله كل مظاهر الدين المختلفة، من قرابين وصلوات وطقوس، ولذلك امتزج السحر بالدين امتزاجاً شديداً، فاليهودية والمسيحية أمشاج سحر ودين. ولكن «هوبير» *H. Hubert* و«موس» *M. Mauss* قد فصلا بين الدين والسحر فصلاً تاماً، في كتابهما: «علم الاجتماع والأنثروبولوجيا». ويرى «هوبير» و«موس» أن الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية قد ألقت ضوءاً واضحاً في الكشف عن مضمون الظاهرة الدينية، وبصدد التمايز القائم بين الدين والسحر، قدم هوبير وموس تحليلاً موسعاً لفكرة القربان نظراً لقيمتها الدينية وأهميتها الاجتماعية، لما تتميّز به من عمومية

[1] أحمد الخشاب: دراسات أنثروبولوجية، مرجع سابق، ص 493.

وثبات في كل المجتمعات الإنسانية. وأكدا أن ظاهرة القربان، هي بمثابة تطبيق منطقي واجتماعي لفكرة (المقدس - sacred)، حيث إن الأشياء التي نقدمها قرباناً ليست مجرد أشياء وهمية لا قيمة لها، وإنما هي أشياء اجتماعية.

ولقد عقد «مارسيل موس» مقارنة فاصلة بين طقوس الدين وتجارب السحر. فالسحر - في حقيقة أمره - بقايا معتقدات قديمة، فيما يرى بعض علماء الفلكلور، من أمثال ***W. Skeat*** (درس الملايو ***Malay***)، أن السحر ما هو إلا مجموعة من الطقوس القديمة، التي تتعلق بالنشاط الزراعي، والأراضي الزراعية. والمميّز الأساسي الذي يميِّز السحر عن الدين - في رأي موس- هو «التحريم». فالتحريم هو الذي يضع حداً فاصلاً واضحاً يبين ذلك التعارض بين طقوس الدين وتجارب السحر. فإذا كان الدين يتعلق بظاهرة الخير والقربان، فإن السحر يرتبط بظاهرة الشر والضرر.

ففي كل الديانات، نجد دائماً نوعاً من المثالية الروحية التي تتجلى في القربة من الله، بالتسابيح والعبادات والقربان، والأماني والنذور، وتلك مظاهر دينية خالصة، بعيدة كل البعد عن السحر وظواهره وتجاريبه، التي لا تتجه إلى الله، وإنما إلى استدعاء أرواح الأسلاف والأجداد، لإيقاع الأذى والضرر عن طريق ممارسة بعض الإجراءات السحرية. وإذا كان السحر يقتضي العزلة والخفاء، وترديد الكلمات غير المميزة، واللغة الغامضة حتى تتحقق السرية التامة، فإن الدين على العكس تماماً، يقتضي العلانية، والوضوح وتميّز كلماته ولغته.

وإذا كان الساحر يقوم بأساليبه السحرية كي «يفرض» على الأرواح والقوى الشريرة القيام بأعمال معينة بالذات، وفقاً لرغبات الساحر، فإن رجل الدين «يسترحم» الإله دون فرض أو إكراه. فهو يطلب الرحمة والمغفرة وتقديم القربان على مذبح المعبد حتى تصفح عنه الآلهة.

وما يعنينا من كل ذلك هو أن ظاهرة الدين تتمايز تمايزاً تاماً عن ظاهرة السحر، فقد حارب السحر الدين محاربة لا هوادة فيها، كما أننا نجد في أفعال السحرة كثيراً من الأعمال والنزعات اللادينية[1].

---

[1] قباري محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة، مرجع سابق، ص **112-114**.

منطق السحر

انتقل هوبير وموس إلى منطق السحر البدائي وتفسير قضاياه وقوانينه من وجهة النظر الاجتماعية. ولقد لفتت مسألة السحر أنظار الاجتماعيين واتجهوا إلى تفسير تلك الظاهرة الاجتماعية الغريبة التي أثارت حولها شتى الفكر منذ قديم الزمان وحارت الأذهان في فهمها، حيث انشغل بها أوائل الفلاسفة والكيميائيين ورجال اللاهوت القديم.

لذلك حاول هوبير وموس أن يصطنعا للسحر منطقاً خاصاً به وأن يشرّعا للقضايا والتصورات السحرية قانوناً يسبر غورها ويفسّر ظواهرها ويكشف عن مضمونها وخباياها.

السحر ظاهرة اجتماعية، ويتسم بالعمومية والجماعية، والسحر ليس «نظاماً» إلا على نحو مخفف، إذ إنه نوع من التجارب الغيبية. فهو «تجارب» لأن السحر هو مجموع أفعال وأعمال، كما نقول أنها «غيبية»، لأن هذه التجارب السحرية هي تجارب طقسية التحديد غريبة الأهداف. ومهما تغيرت أشكال التجارب السحرية، ومهما تغيرت ألوان الثقافات والحضارات، فالسحر قائم كظاهرة اجتماعية عامة، كما أنه واحد في جوهره في كل زمان ومكان.

لقد استند هوبير وموس في دراستيهما لمنطق السحر إلى تلك الدراسات القديمة التي بدأت عند علماء الفلكلور (الأخوين جريم)، ثم تطورت في كتابات تايلور وفي دراسات «ولكن» ***Wilken*** وسيدني هارتلاند. كما استند هوبير وموس أيضاً إلى جهود «ليمان» ***Lehmann*** وجيمس فريزر، وتابعاها في صورتها النهائية عند كل من ***Sir Alfred Lyall*** وجيفونس ***Jevons*** ولانج ***Lang...***

ولقد اتفقت كل تلك الدراسات على أن السحر هو مرحلة أولى من مراحل التطور العقلي، وأنه بداية أولية للمنطق الإنساني. وهذا ما أوحى به «أوجست كونت» ***Auguste Comte*** في قانونه المأثور للحالات الثلاث[1].

---

[1] إن مضمون هذا القانون هو أن كل تصور من تصوراتنا الرئيسية وكل فرع من فروع معارفنا يمر في تتابع بثلاث حالات نظرية مختلفة: وهي الحالة اللاهوتية أو الخيالية، والحالة الميتافيزيقية أو المجردة، ثم الحالة العلمية أو الوضعية.

لقد اتفقت الدراسات العديدة التي تتعلق بالسحر والمنطق على أن السحر نوع من العلم، أو أنه «علم سابق» على العلم نفسه، وهذه الفكرة الأخيرة هي محور نظرية فريزر في السحر.

لقد أكد فريزر عمومية الظاهرات والمعتقدات السحرية، وردّ بناءها المنطقي عن طريق التحليل إلى نوعين من السحر، فقارن بين ما أسماه «السحر التواصلي» من جهة، و«السحر التشابهي» من جهة أخرى. ويرجع هذين النوعين للسحر في رأي فريزر إلى قانون التجاور. بمعنى أن الكلمات والأشياء المتجاورة يؤثر بعضها في البعض الآخر، فما يؤثر على الجزء يؤثر بالتالي على الكل، أما السحر التشابهي فيرجع إلى «قانون المشابهة» بمعنى أن الساحر يستطيع أن يجري عملياته السحرية على صورة أو تمثال الشخص الذي يراد التأثير عليه استناداً إلى مبدأ الشبيه يؤثر في الشبيه[1].

ولقد افترض فريزر أن السحر هو أول مظهر من مظاهر التفكير الإنساني، ومما يؤكد صدق هذا الافتراض هو التفاته إلى تسلط الطقوس السحرية على عقائد البدائيين وعلى مختلف مظاهر الفلكلور السائدة في البناء الاجتماعي البدائي، حيث تأكد من وجود تلك الظواهر السحرية في بعض قبائل أستراليا الوسطى، تلك التي تسودها الطقوس الطوطمية التي اختلطت بها بعض السمات السحرية، حيث يؤسس السحر كل معالم الحياة الغيبية. كما اعتقد فريزر أن «التفكير السحري» ما هو إلا مرحلة أولية من مراحل التفكير المنطقي، وأن «مرحلة التفكير الديني» كانت هي المرحلة التالية باعتبارها منفذاً أو مخرجاً، بل واعتراضاً على أخطاء التفكير السحري وأوهامه.

ولم يكتف «جيمس فريزر» بهذا الافتراض القائل بسبق التفكير السحري على التفكير الديني، بل إنه قد أتم فرضه هذا حين أعلن مرحلة انتقالية أخيرة لمنطق الفكر الإنساني واتجاه العقل في النهاية نحو العلم بعد أن نفض العقل عن نفسه أوهام الدين وتخلص نهائياً من كل شكل من أشكال العلية الغيبية والعلية السحرية، ليؤمن العقل في النهاية بفكرة «العلية التجريبية». ونستنتج من كل ذلك

---

[1] د. قباري محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة، الجزء الأول «المنطق»، ط 2، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، من دون تاريخ، ص 132-134.

أن «فريزر» قد أراد أن يصطنع قانوناً شبيهاً بقانون «كونت» لتطور العقل الإنساني. فقال بتطور الحياة الاجتماعية وتحولها من عالم السحر والغيبيات إلى عالم الدين، وانتقالها أخيراً إلى مرحلة العلم الوضعي.

ولقد عقد الاجتماعيون والأنثروبولوجيون على السحر أهمية كبرى. إذ إنه ألقى ضوءاً جديداً في تشكيل «مبدأ العلية»، وأصبح لدينا شكلاً جديداً من أشكال العلية، وهو ما أسماه «هوبير» و«موس» بالعلية السحرية.

وأضاف هوبير وموس أن السحر يقوم بوظيفة تشبه إلى حد بعيد «وظيفة العلم»، كما أنه يأخذ مكانة العلوم في صورتها الأولية، كما ويضيف الساحر وما يقوم به من عمليات وتجارب سحرية، سمة من سمات العلم على طبيعة السحر. ولما كان للعلم قوانينه الموضوعة، فإن للسحر أيضاً قوانينه التي تفسّر الظاهرات السحرية.

ويتابع «مارسيل موس»، ذلك الاتجاه الدوركهايمي في الدراسات السحرية حين ينظر «دوركهايم» و«موس» إلى الدراسات السحرية على أنها فصل من فصول علم الاجتماع الديني، حيث إن للسحر صلته بالعلم، كما أن له أيضاً علاقته بالدين. فبينما ينحو الدين نحو الميتافيزيقيا، يتجه السحر نحو الحياة الغيبية ويختلط بأمور مادية وواقعية. وإذا اتجه الدين نحو «الروحي»، فإن السحر يتجه نحو «الدنيوي». وحيث ينحو السحر إلى ما هو عيني مشخص، يتجه الدين نحو التجريد، وحين يعمل السحر في الطبيعة، يعمل الدين فيما وراء الطبيعة. والسحر مرتبط بالصناعة، وهو مجعول للعمل في مجال الإنتاج ولذلك كثيراً ما اختلط السحر بالطب والصيدلة والكيمياء والفلك والتنجيم، وهي علوم نشأت في جوف السحر. وكلما تقدم العلم تحرر من ماضيه السحري وتجرد عن جوانبه الغيبية. بمعنى أن قدامى العلماء كانوا سحرة، وأن شطراً من العلم قد وضعه السحرة، ولقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى حين جمع بين مفهوم السحر ومفهوم العلم. وليس العلم هنا العلم الحديث، وإنما هو ذلك «العلم العتيق» حيث تقول الآية الكريمة: «قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ» (الأعراف: الآية 109). وفي آية أخرى يقول تعالى: «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ» (الأعراف: الآية 112)[1].

---

[1] المرجع السابق، ص 138- 139.

منطق السحر وقوانين الظاهرات السحرية

وصنف هوبير وموس لمنطق السحر ثلاثة قوانين تحكم الظواهر السحرية وتفسر كل حالاتها الجزئية. القانون الأول هو قانون التجاور والاتصال، والثاني هو قانون المشابهة، أما القانون الثالث فهو قانون التضاد.

وذهب هوبير وموس إلى أن تلك القوانين الثلاثة للظاهرات السحرية إنما صدرت عن مبادئ أولية عامة، مثل مبدأ «الشبيه ينتج الشبيه» ومثل «المبدأ العكسي»، وهو أن الضد يعمل على إيجاد الضد والتأثير عليه.

إن قوانين «التجاور والتشابه والتضاد» في ميدان السحر تماثل تماماً مبادئ الاقتران والهوية والتضاد في ميدان الدراسات المنطقية.

وأغلب الظن أن تلك القوانين السحرية تعود بنا إلى نظرية «تداعي المعاني أو ترابط الأفكار»، فيما لاحظ «إدوارد تايلور» بمعنى أن التداعي الذاتي للأفكار والمعاني، ينجم عنه بالتالي تداعٍ موضوعي للوقائع والأحداث.

1- قانون التجاور:

أما فيما ما يتعلق بالقانون الأول من قوانين السحر، فإنه يستند إلى مبدأ قديم هو أن «خصائص الجزء تحتوي على خصائص الكل». ومعنى ذلك أن الجزء صادر عن الكل، ويحوي في طياته «هوية الكل وذاتيته». واستناداً إلى هذا الفهم فإن أسنان الإنسان وأظافره ولعابه وعرقه، إنما تمثل الإنسان نفسه أي أن مخصصات الإنسان «تتضمن في ذاتها» خصائص الإنسان نفسه. وفي ضوء هذا الفهم أيضاً يمكن القيام ببعض العمليات السحرية مثل «الرقى والتعاويذ» على مخصصات الإنسان وممتلكاته فتصاب شخصية الإنسان أو ذاتيته سواء بالخير أو بالشر. وهذا هو ما يُقصد من المبدأ الذي استند إليه هوبير وموس وهو القائل: «إن الكل سابق على الجزء، وبالتالي يؤثر الجزء في هوية الكل». وفي هذا المعنى يقول هوبير وموس: «في السحر، إن ماهية الشيء تخص الجزئيات كما تخص الكل». وجملة القول، إن القانون بصفة عامة هو أن خاصية ما، إنما تنسب إلى أنفس الأفراد وإلى الماهية الروحية للأشياء». يتضح لنا من ذلك أن جوهر الأشياء إنما يكمن في جزئياتها،

كما أن ماهية الإنسان أو هويته إنما تنبث في كل متعلقاته ومخصصاته على سبيل المشاع. واستناداً إلى هذا المعنى فإن «عظام الموتى» تتضمن في ذاتها معنى «الموت»، كما أن شعر الإنسان يحمل في طياته معنى «الحياة» ويتضمن فيه هذا المبدأ الحيوي الذي يفسر حياة الإنسان برمتها.

2- قانون المشابهة:

صدر هذا القانون عن مبدأين قديمين: أولهما مبدأ يقول: «إن الشبيه يدعو الشبيه، وله أثره في إيقاع الضرر به». أما المبدأ الثاني فهو القائل: «إن الشبيه يؤثر على الشبيه في شفائه وإبرائه». ومعنى ذلك أن القانون الثاني من قوانين السحر، يفترض أصلاً قيام القانون الأول، حيث يُشتق منه ويستند إليه، إذ إننا نستخلص منه، أن «صورة الشيء إنما يكون لها أثرها بالضرر أو النفع على موضوعها». وفي هذا الصدد يقول هوبير وموس: «إن الصورة وموضوعها - ليس بينهما نقطة مشتركة إلا الاتفاق الذي يربطهما، فهذه الصورة دمية كانت أو رسماً، إنما هي رسم مصغر جداً أو هي صورة ذهنية مشوهة لا تشبه الأصل إلا نظرياً وعلى سبيل التجريد».

يُستدل من هذا النص أن صورة الأشياء والأشخاص إنما تؤثر في ذات الأشياء وكيان الأشخاص أنفسهم لما بين الصور وموضوعاتها من رابطة أو اتصال، كما أن لتلك الصور وظيفتها التي تتمثل في تحديد الشخص المراد التأثير عليه. فصور الأشياء في منطق الساحر إنما هي رموز مجردة لتلك الأشياء العينية المشخصة. ومن ثم يقوم الساحر بعملياته السحرية، وإطلاق تعاويذه على «صورة أو تمثال أو دمية» فيكون لها بالتالي آثارها على الشخص موضوع الصورة.

3- القانون الثالث في منطق السحر:

يُستنبط هذا القانون من المبدأ الثاني من مبادئ قانون المشابهة، بحيث يمكن أن تؤلف هذه القوانين الثلاثة للسحر نسقاً استنباطياً رتيباً، كما هو الحال في أنساق المنطق. ونظرية النسق الفرضي الاستنباطي في الرياضيات كما يقول «كلود ليفي شتراوس» *Claude Lévi-Strauss* في مقدمته لكتاب (علم الاجتماع والأنثروبولوجيا). وتتحدد صيغة القانون الثالث كما صاغها هوبير وموس بتلك الكلمات الدقيقة

والقليلة: «إن الشبيه يعمل على ذهاب الشبيه كي يحدث الضد أو يسبب العكس». ومعنى ذلك أن القانون الثالث من قوانين السحر يشتق أو يستنبط كما قلنا من قانون المشابهة. فمن حيث إن الشبيه يؤثر على الشبيه، وإن الضد يقتضي المثل، إذ إن الضدين من وجه، هما مثلان من وجه آخر، فإننا نستطيع أن نستنبط من مبدأ المشابهة، أن الأضداد هي الأخرى تؤثر في بعضها بعضاً، بمعنى أننا نستطيع أن نستخدم الشبيه في إحداث الأثر على «الضد غير الشبيه»، ولذلك يستطيع الساحر بفضل هذا الشبيه أن يؤثر على عكسه أو ضده[1].

---

[1] المرجع السابق، ص 143- 144.

obeikandl.com